

أخبار ابن الرومى

العصر والرجل

فى تاريخ كل أمة عصر أو عصور اشتهرت بكثرة الذين ظهوروا فيها من النوابع والعبقرين فى الشعر والأدب والفن والصناعة، فيقول الذين يرجعون الفضل كله إلى العصر وحده أن أحوال العصر هى التى عليها المعول فى تكوين المواهب والعبقريات.

وفى تاريخ كل أمة أيضاً نوابع وعبقريون ظهوروا فى مختلف العصور على تفاوت الأحوال بين عصر وعصر وبيئة وبيئة، فيقول الذين يرجعون الفضل كله إلى ملكة الفرد واستعداده أن العصر لا يغنى شيئاً فى تكوين المواهب والعبقريات، أو أنه - إذا لم تسعف الموهبة والعبقرية - قليل الغناء.

ونحن يجب أن نحذر كل فكرة يراد بها أن تخدم فكرة أخرى، فهى تفقد استقلالها كله أو بعضه كما يفقد استقلاله كل من يخدم سواه. إنما تحترم الفكرة إذا أريدت لنفسها ولم ترد لتأييد فكرة هى مضافة إليها.

فيغلب على الذين يحصرون الفضل فى العصر وحده أنهم يدعون إلى الاجتماعية والاشتراك فى مرافق الأمة، فقللون من شأن الأفراد فى الوصول إلى حظ من حظوظ العلم والمال بغير مساعدة المجتمع ومؤاتاة الحوادث.

ويغلب على الذين يحصرون الفضل فى الفرد وحده أنهم ينازعون أصحاب ذلك الرأى وينظرون إلى تفيده وتوهينه لإبطال ما يدعو إليه.

فهم مخطئون وأصحابهم أولئك مخطئون. ولا يرجى الإخلاص وصدق التحرى فى فكرة مسخرة تساق فى ذيل مذهب تعتمد عليه أو يعتمد هو عليها. فلا العصر هو كل شىء ولا الموهبة الفردية هى كل شىء، والأمر الذى لا مرأى فيه هو أن العصر لا يخلق الموهبة إذا هى لم توجد فى

صاحبها، وأن بعض العصور من الجهة الأخرى أصلح لإظهار المذاهب
والعبقريات.

ثم إن العصر إذا لم يخلق الموهبة خلقاً فهو لا ريب يوجهها ويهيئ لها
أسباب تمامها واستوائها، بحيث يسهل علينا أن نفهم كيف أن عبقرية من
العبقریات تهتدى على وجهتها في زمن ولا تهتدى إليها في زمن آخر، وكيف
أن رجلاً يكون صانعاً في هذا العصر أو ذاك وهو لو ولد في غيره لكان من
الأدباء أو السواس.

ولا فائدة هنا من البحث في مصر ابن الرومي ماذا كان يلقي وماذا كان
يصبح لو أنه ولد في غير القرن الثالث للهجرة. فقد ينبغ أو لا ينبغ، إلا أن
المحقق عندنا أنه في أى عصر ظهر لا يكون إلا شاعراً أو صاحب عمل فنى
بسبيل من الشاعرية. فقد نتخيل أبا تمام - مثلاً - قاضياً والبحتري عاملاً
والمتنبى وزيراً والمعري فقيهاً والشريف خليقة أو إماماً من أئمة الطريق، وقد
نتخيلهم جميعاً ظاهرين بازرين فى غير هذه الأعمال التى يزاولها أبناء الدنيا
ويفلحون فيها على درجات من الفلاح، فهم يصلحون لها ولغيرها بعض
الصلاح وإن كانوا مع هذا شعراء لا يصلح إلا للشعر وما إليه ولا ينفعه
العصر إن لم ينفعه فى هذا المجال. فإذا تمهد له الشعر فقد استوى على
نهجه، وإذا لم يكن شاعراً فهو لا شىء.

والعصر الذى عاش فيه كان صالحاً لظهور ابن الرومي أيما صلاح: كان
صالحاً لظهور ابن الرومي - الشاعر - لأنه كان عصرًا حيًا حافلاً بأشتات
الحياة وألوان الإحساس مشغولاً بالشعر والعلم وكل ما تشتغل به قريحة أو
سليقة، وكان فيما عدا ذلك عصر الموالى أو عصرًا للموالى فيه نصيب وافر
من التعلم والتأدب والتربية التى تعد صاحبها للسبق فى كل مضمار.

كان لهذا عصرًا صالحًا لظهور ابن الرومي الشاعر الذى لا متقدم له فى
غير الشاعرية.

ولكن أترأه كان كذك عصرًا صالحًا لظهور ابن الرومي - الرجل - الذي لم تبق منه الشاعرية بقية لمسعاة ولا لتصرف؟

لا! لم يكن ذلك العصر صالحًا لابن الرومي الرجل كما كان صالحًا لابن الرومي الشاعر. بل لم يكن ذلك العصر إلا عصر مضيعة له ولا مثاله الذين خلقوا في هذه الدنيا وكأنهم أطفال في حجر الفن. لا يكلفون أنفسهم إن لم تلحظهم من الدنيا كفالة ساهرة.

فكانت قسيمته تلك من غرائب القسم التي تتنازع الإنسان بين النقيضين، كأنه جسم مشدود للتعذيب بين قطبين متجاذبين.

فمن جهة هو في زمنه الذي لم يخلق لغيره، ومن جهة هو في الزمن الوحيد الذي لم يخلق له ولم يتزود له بألة: ابن الرومي الشاعر في عصر الحياة والإحساس والدراسة والموالي فهو بخير . . وابن الرومي الرجل في عصر الدهاء والخبث والصراع الجهنمي فهو بشر ما يكون عليه مثله . . ولا سبيل إلى الافتراق بين الشخصين، ولا سبيل كذلك إلى التوفيق بينهما على حال!

لو كان ابن الرومي شاعرًا وشيئًا آخر لكان قميئًا أن يرضى بعصره وأن يرضى به عصره: لو كان شاعرًا ورجلا يحسن الخوض في معترك العيش بين تلك الفتن والمغامرات لالتقى بعض الفشل على الأقل وارتجى بعض النجاح. لكنه كان شاعرًا وحسب ولم يكن له زاد آخر غير السليقة الفنية! فجنى الشاعر على الرجل ولم يسعد الشاعر بما جناة. ومن هنا ذلك التفاوت بين نصيب شعره ونصيب شخصه، وذلك الخطأ في تقدير مكانه وسمعته. فهو حامل وليس بخامل وهو نابه وليس له نصيب النباهة! شعره نافق وقائل الشعر كاسد . . وربما عابوا شعره في حياته وأكثروا من عيبه. ولكنك بيسير من النظر قد ترى أنهم لم يقصدوا بالعيب الشعر كما قصدوا القائل . . وإن كان في الشعر ما يعاب!

فالذين تبادر إليهم أن ابن الرومي كان مجهول القدر في حياته وبعد مماته إنما نظروا إلى إحدى صفحاته ولم ينظروا إلى الصفحة الأخرى. إنما كان خمبول الرجل أنه لم يتتفع بمعرفة الناس إياه لا أنه لم يعرف، وربما كان له خمبول آخر وهو أنه لم يعرف بأحسن مزياءه. أما أنه قد عرف فذلك حق لا شك فيه.

وقد ازداد الناس معرفة به بعد موته كما اتفق كثيراً لمعظم الأديباء والعلماء. فقال العميدى صاحب الإبانة المتوفى سنة ثلاث وثلثين وأربعمائة وهو يذكر المتنبي: "ولا أقيسه فى امتداد النفس وعلم اللغة والافتدار على ضروب الكلام وتصوير المعانى العجبية والتشبيهاة الغربية والحكم البارعة والآداب الواسعة بابن الرومى" . . وقال ابن رشيق صاحب العمدة المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة: "أكثر المولدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الخذاق أبو تمام وابن الرومى" . . وقال ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ثلاث وسبعين وستمائة فى كتابه بعنوان المرقصات والمطربات: "ويقولون أنه أحق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده" . . وذكر وفاته ابن الأثير المتوفى سنة ثلاثين وستمائة فقال أن "ديوانه معروف" . . أى أن هذا الديوان كان متداولاً فى أيدي الأديباء إلى أيامه. ونظر إلى معانيه كثير من فحول الشعراء والأديباء منهم المتنبي وبديع الزمان والمعرى والشريف، وشاعت مختاراته فى كتب الأدب فلم يخل منها إلا قليل.

أما أخباره فقد عنى بكتابتها وروايتها اثنان من أديباء عصره، وهما عبيد الله بن المسيب وأبو عثمان الناجم. وثالث هو أحمد بن عمار قال ابن المسيب أنه لما مات ابن الرومى "عمل كتاباً فى تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس".

ويظهر أن أبا عثمان سعيد بن هاشم الخالدى من أديباء القرن الرابع توسع فى ترجمته أما فى كتابه حماسة المحدثين أو فى كتاب مقصور عليه،

ولكن أخباره هذه ذهبت كلها ولم يبق منها أثر إلا متفرقات في الكتب لا تغنى في ترجمة وافية ولا شبيهة بالوافية، وهى على قلتها لا يسعنا إغفالها وللا يسعنا كذلك أن نعتد عليها ونقبلها على علاتها.

فنحن نقلها كما هى فيما يلى ثم نعقب عليها ونستخرج منها ما فى الوسع أن نستخرجه من ترجمته للرجل تدل عليه وتستحضر للذهن صورة لعبقريته، ومثلنا فى ذلك كمثلى المنقبين فى المحفورات إذ يعثرون ببعض العظام المهشمة من جسم مدثور، فهم يقيسون المفقود على الموجود ويضنون بما وجدوه على الضياع ولم لم يكن له قوام.

أخبار ابن الرومى

ولد ابن الرومى كما جاء فى ابن خلكان: يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر ليلتين خلنا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد فى الموضع المعروف بالعقبة ودرب الختلية فى دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور".

ويحدثنا كثيراً فى الكتب التى عثرنا على شىء من أخباره فيها فلم نجد ذكراً لأبويه وأهله ولا لأيام أحداثه وتعليمه، وانقطعت أخباره فى هذه الفترة فلم تقع لنا إلا النوادر التى رويت عنه وهو شاعر لا يعرف سنه إلا بالنظر إلى تواريخ الوقائع التى وردت فى شعره. فجاء فى معجم الأدباء لياقوت الحموى أثناء الكلام على أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار:

"... ووجدت فى كتاب ألفه أبو الحسن على بن عبيد الله بن المسيب الكاتب فى أخبار ابن الرومى وكان ابن المسيب هذا صديقاً لابن الرومى وخليلاً له قال: كان أحمد بن محمد بن عبيد الله بن عمار - هكذا قال فى نسبه بشقديم محمد على عبيد الله - صديقاً لابن الرومى كثير الملازمة له، وكان ابن الرومى يعمل له الأشعار وينحله إياها يستعطف بها من يصحبه،

وكان ابن عمار محدوداً فقيراً ونفاعاً في الأحرار وكان أيام افتقاره شديد السخط لما تجرير به الأقدار في أثناء الليل والنهار. حتى عرف بذلك فقال له علي بن العباس بن الرومي يوماً: يا أبا العباس! قد سميتك العزيز. قال له! وكيف وقعت لي هذا الاسم؟ قال لأن العزيز خصم ربه بأن أسأل من دماء بني إسرائيل على يدي بختنصر سبعين ألف دم، فأوحى الله لئن لم تترك مجادلتى في قضائي لأمحونك من ديوان النبوة! وقال فيه:

وفي ابن عمار عزيزية يشارك الله بها في القدر
لم كان ما كان ولم لم يكن ما لم يكن، فهو وكيل البشر
إلخ .. إلخ ..

وكتب ابن الرومي إلى أحمد بن محمد بن بشر المرثدي قصيدة يمدحه بها ويهنئه بمولود ولد له ويحضه على بر ابن عمار والإقبال عليه يقول فيها:

ولى لديكم صاحب فاضل أحب أن يرعى وأن يصحبا
إلخ .. إلخ ..

قال: "وصار محمد بن داود بن الجراح يوماً إلى أين الرومي مسلماً عليه فصادف عنده أبا العباس أحمد بن محمد بن عمار وكان من الضيق والأملق في النهاية، وكان علي بن العباس مغموماً به فقال محمد بن داود لابن الرومي ولأبي عثمان الناجم: لو صرتما إلي وكشرتما بما عندي لأنس بعضنا ببعض. فأقبل ابن الرومي علي محمد بن داود فقال: أنا في بقية علة وأبو عثمان مشغول بخدمة صاحبه - يعني إسماعيل بن بلبل - وهذا أبو العباس بن عمار له موضع من الرواية والأدب وهو علي غاية الامتناع والإيناس بمشاداته، وأنا أحب أن تعرف مثله، وفي العاجل خذه معك لتقف علي صدق القول فيه فأقبل محمد بن داود علي أحمد بن عمار وقال له تفضل بالمصير إلي في هذا اليوم وقبله قبولاً ضعيفاً، فصار إليه ابن عمار في

ذلك اليوم ورجع إلى ابن الرومي فقال: إنني أقمت عند الرجل بيت وأريد أ،
تقصده وتشكره وتؤكد أمرى معه، ومحمد بن داود في هذا الوقت متعطل
ملازم منزله. فصار إليه وأكد له الأمر معه وطال اختلافه إليه إلى أن ولي
عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد واستكتب محمد بن داود الجراح
وأشخصه معه وقد خرج إلى الجبل ورجع وقد زوجه بعض بناته وولاه ديوان
المشرق، فاستخرج لابن عمار أقساطاً أغناه بها وأجرى عليه أيضاً من ماله،
ولم يزل يختلف إليه أيام حياة محمد بن داود، وكان السبب في أن نعشه الله
يعد العثار وانتاشه من الأقتار ابن الرومي، فما شكر ذلك له وجعل يتخلفه
ويعيبه، وبلغ ابن الرومي ذلك فهجاه بأهراج كثيرة . . قال ابن المسيب: ومن
عجيب أمر عزيز هذا أنه كان ينتقص ابن الرومي في حياته ويزرى على شهره
ويتعرض لهجائه. فلما مات ابن الرومي عمل كتاباً في تفضيله ومختار شعره
وجلس يمليه على الناس .

وجاء في الجزء الأول من العمدة لابن رشيق:

"وهجا ابن الرومي البحتري وابن الرومي من علمت فأهدى إليه تخت
متاع، وكيس دراهم، وكتب إليه ليريه أن الهدية ليست تقيّة منه ولكن رقة
عليه، وإنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط .

شاعر لا أهابه نبحتنى كلابه

أن من لا أعزه لعزير جوابه

وروى المرزبانى فى الموشح أن عبد الله بن يحيى العسكرى أخبره عن
أبى عثمان سعيد بن الحسن الناجم أن البحتري قال له:

"أشتهى أن أرى ابن الرومي" قال فوعده ليوم بعينه وسألت ابن
الرومي أن يصير إلى فيه، فأجابني إلى ذلك. فلما حصل ابن الرومي عندي
وجهت إلى البحتري فصار إلى، فقال له البحتري: قد أقرأني أبو عيسى بن

صاعد قصيدة لك في أيه وسألني عن الثواب عنها، فقلت أعطوه لكل بيت ديناراً. ثم تحدثنا، فقال البحتري: عزمت على أن أعمل قصيدة على وزن قصيدة ابن الرومي الطائية في الهجاء. فقال له ابن الرومي: إياك والهجاء يا أبا عبادة، فليس من ملك وهو من عملي. فقال له: نتعاون. وعمل البحتري ثلاثة أبيات، وعمل ابن الرومي ثمانية فلم يلحقه البحتري في الهجاء. وكن اجتماعهما عندي سبباً للمردة بينهما".

وروى المرزباني أيضاً في الموشح:

"أخبرني محمد بن يحيى قال كنا يوماً عند عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومي في أبي الصقر التي أولها: "أجنت لك الوجد أغصان وكشبان" فقال عبيد الله: في دار البطيخ! فضحك الجماعة، فقال: اقرأوا تشبيهاً فانظروا، هي كما قلت! قال محمد: وقد ملح عبيد الله وظرف، وهذه القصيدة أكثر ما مائتت بيت مر له فيها إحسان كثير، ومن تشبيهاً مما يدل على قول عبيد الله:

أجنت لك الوجد أغصان وكشبان	فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذينك أعنان مهذلة	سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب يلوح به	أطرافهن قلوب القوم فنوان
غصون بأن عليها الدهر فاكهة	وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات سارى الطل يضربه	وأقحوان منير النور ريان
الفن من كل شيء طيب حسن	فهن فاكهة شتى وريحان

فلما سمع أبو الصقر قوله:

هذا الذي حكمت قدماً بسؤده	عددنا ثم أجازت ذاك قحطان
قالوا أبو الصفر من شيبان قلت لهم	كلا لعمرى ولكن منه شيبان

قال: هجانى والله: قيل له: هذا من أحسن المديح، اسمع ما بعده:
 وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علا برسول الله عدنان
 فقال أنا بشيبان ليس شيبان بى: قبل له: فقد قال:
 ولم أقصر بشيبان التى بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان
 لله شيبان قوم لا يشيبهم روع إذا الروع شابت منه ولدان
 فقال "والله لا أثبتة على هذا الشعر وقد هجانى فيه. قال الشيخ أبو
 عبيد الله المرزبانى رحمه الله تعالى: وهذا ظلم من أبى الصقر لابن الرومى
 وقلة علم منه بالفراق بين الهجاء والمديح":

وجاء فى الجزء الثانى من زهر الآداب أن على بن العباس الرومى كان
 "مفرط الطيرة شديد الغلو فيها. قال على بن عبد الله بن المسيب: وكان
 يحتج لها ويقول إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة
 أفتراه كان يتفاهل بالشئ ولا يتطير من ضده؟ ويقول أن النبى صلى الله عليه
 وسلم مر برجل وهو يرحد ناقه ويقول يا ملعونة، فقال لا يصحبنا ملعون،
 وأن علياً رضى الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر فى العقر، ويزعم أن
 الطيرة موجودة فى الطباع قائمة فيها، وأن بعض الناس هى فى طباعهم أظهر
 منها فى بعض، وأن الأكثر فى الناس إذا لقي ما يكرهه قال: على وجه من
 أصبحت اليوم. فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى إلى
 عدة من جوارى القيان، وكانت فيهن صبية حواء وعجوز فى إحدى عينيها
 نكتة، فتطير من ذلك لوم يظهر لى أمره وأقام باقى يومه، فلما كان بعد مدة
 يسيرة سقطت لى ابنة من بعض السطوح وجفاه القاسم بن عبيد الله فجعل
 سبب ذينك المعنيين المغنيتين وكتب إلى:

أيها المحتفى يحول وعود أين كانت منك الوجوه الحسان؟
 قد لعمري ركبت أمراً مهيناً ساءنى يفيك أيها الخالصان

فتحك المهرجان بالحوول والعو
كان فى ذاك فقدك ابتك الحر
وتجافى مؤمل لى جليل
فلما غاب عن أمورك عنوا
لا تكن بالهوى تكذب بالأخبا
لا يقدك الهوى إلى نصره الأخبا
أن عقب الهوى هوى وقبى
لا تصدق عن النبیین إلا
خير الله أن مشامة كا
افزور الحديث تقبل أم ما
أترى من يرى البشير بشيراً
فدع الهزل والتضحك بالط
وجاء فى ذلك الجزء بعد ذلك:

" وكان أبو الحسن على بن سليمان الأخفش غلام أبى العباس المبرد فى
عصر ابن الرومى شاباً مترفاً ومليحاً مستظرفاً، وكان يعبث به فىأتيه بسحر
فيقرع الباب، فيقال له من؟ فيقول قولوا لأبى الحسن مرة ابن حنظلة، فيتطير
لقوله ويقيم الأيام لا يخرج من داره وذلك كان سبب هجائه إياه. . فاعتذر
إليه وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد، وكان الأخفش أكثر الناس إخواناً
فقبل عذره ومدحه بقصيدته التى يقول فيها:

ذكر الأخفش القديم فقلنا أن للأخفش الحديث فضلاً
إلخ . . إلخ . .

ثم عاد على بن سليمان إلى أذاه واتصل به أن رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها فقال قصيدته انتى يقول فيها:

ما بلغت بى الخطوب رتبة من نفهم عنه الكلاب والقردة
ولا أنا المفهم البهائم والطرر سليمان قاهر المرده
فإن يقل إننى حفظت فكالد فتر جهلا بكل ما اعتقده
سأسمع الناس ذمه أبداً ما سمع الله حمد من حمده

وفى الواقع بينه وبين الأخفش يقول الزبيدى تلميذ أبى على القالى وهو صاحب طبقات النحويين المتوفى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة: "حدثنى أبو على قال: كان على ابن العباس الرومى لا يدع التطير والتفؤل فى جميع حركاته وتصرفه وكان على بن سليمان الأخفش قد أولع باعتراضه فى مخارجه فيما يتطير به، فربما صرفه بذلك عن وجهه وربما دق عليه الباب فإذا قال من أنت؟ قال الشؤم والبلاء! فلا يبرح على بن العباس يوم ذاك، فلما شق عليه ذلك هجاه فأقذع فى هجائه، فكان الأخفش يستعمل حفظ هجائه ثم يمليه فيما يملى من الأخبار والأشعار على أصحابه، فلما رأى على بن العباس أن الأخفش لا يألم لهجائه أقصر عنه"

ويقول صاحب العمدة فى هذه الوقائع بينه وبين الأخفش:

"وقد مزقه بالهجاء كل ممزق وجعله مثله بين أصحابه. على أن الأخفش كان يتجلد عليه ويظهر قلة المبالاة به وهيهات وقد وسمه وسمه الدهر وسامه سوم الخسف والقهر"

والأقوال فى طيرة ابن الرومى كثيرة منها ما استطرده إلى ذكره صاحب زهر الآداب حيث قال بعيد ما أسلفنا نقله:

"ولابن الرومى فى الأخفش أفحاش صنت الكتب عنه، قال على بن غبراهيم كاتب مسروق البلخى: كنت بدارى جالساً فإذا حجارة سقطت

بالقرب منى، فبادرت هارباً وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح والنظر إلى كل ناحية، من أين تأتينا الحجارة، فقال: امرأة من دار ابن الرومى الشاعر قد تشوفت، وقالت: اتقوا الله فينا وأسقونا جرة ماء وإلا هلكنا، فقد مات من عندنا عطشاً. فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخطبها، ففعلت وبادرت بالجرة وأتبعتها شيئاً من المأكول، ثم عادت إلى فقالت: ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومى، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه، فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب فتقع عينه على جاره له كان نازلاً بإزائه، وكان أحذب يقعد كل يوم على بابه، فإذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب. فعجبت لحديثها، وبعثت بخادم كان لى يعرفه، فأمر به بأن يجلس بإزائه وكانت العين تميل إليه، وتقدمت إلى بعض أعوانى أن يدعو الجار الأحذب، فلما حضر عندى أرسلت وراء غلامى لينهض إلى ابن الرومى ويستدعيه للحضور، فإنى لجالس ومعى الأحذب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسى ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتمد، ودخل ابن الرومى فلما تخطى عتبة باب الصحن عشر فانقطع شع نعله: فدخل مذعوراً، وكان إذا فجأه الناظر رأى منه منظرًا يدل على تغير حال فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه، فقلت له يا ابن الحسن أياكون شىء فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل؟ فقال قد لحقنى ما رأيت من العثرة لأنى فكرت أن به عاهة وهى قطع أنثيه! قال برذعة: وشيخنا يتطير؟ قلت نعم ويفرط، قال ومن هو؟ قلت على بن العباس. قال: الشاعر؟ قلت نعم. فأقبل عليه وأشده:

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه بتفسيق ما بينى وبين الجانب
رجعت إلى نفسى فوطنتها على ركوب جميل الصبر عند الغوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها فأيامه محفوفة بالمصائب

فخذ خلسة من كل يوم تعيشه وكن حذرًا من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفال والزجر واطرح تطيرس جار أو تفاؤل صاحب
فبقى ابن الرومي باهتًا ينظر إليه، ولم أدر أنه شغل قبله بحفظ ما
أنشده، ثم قام أبو حذيفة وبرذعة معه، فحلف ابن الرومي لا يتطير أبدًا من
هذا ولا من غيره، وأما إلى جاره، فقلت، وهذا الفكر أيضًا آمن التطير،
فأمسك. وعجب من جودة الشعر ومعناه وحسن مأتاه، فقلت له ليتنا كتبناه!
قال اكتبه قد حفظته وأملاه على.

ومن شدة حذره وعظيم قوله لأبي العباس بن ثوبة وقد ندبه إلى
الخروج إليه وركوب دجله:

حضضت على حطبي لنارى فلا تدع لك الخير تحذيري شرور المحاطب
ومن يلق ما لا قيت فى كل مجتبي من الشوك يزهد فى الثمار الأطايب
إذا أقتنى الأسفار ما كره الغنى إلى وأغرانى برفض المطالب
من نكبة لا قيتها بهد نكبة رهبت اعتساف الأرض ذات الماكب
فصبرى على الأقتار أيسر مطلبًا على من التغرير بعد التجارب
إلخ .. إلخ ..

وهى طويلة وفيما مر كفاية تنبئ عنه وتدل عليه، ولو مددت أكتاب
الاختيار لتتبع هذا النحو من شعره لخرجت من غرض الكتاب.

وفى الجزء الأول من العمدة أنه: "كان كثير الطيرة ربما أقام المدة
الطويلة لا يتصرف تطيرًا بسوء ما يراه ويسمعه، حتى أن بعض إخوانه من
الأمراء افتقده فاعلم بحاله فى الطيرة، فبعث إليه خادمًا اسمه إقبال ليتفاهل
به، فلما أخذ أهبطه للركوب قال للخادم: انصرف إلى مولاك! أنت ناقص
ومعكوس اسمك لا بقًا .. وابن الرومي القائل: الفأل لسان الزمان والطيرة
عنوان الحدثان، وله فيه احتجاجات وشعر كثير".

وقال على بن عبد الرحمن العباسى صاحب معاهد التنقيص المتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة: "كان كثير التطير جداً وله فيه أخبار غريبة، وكان أصحابه يعبثون به فيرسلون إليه من يتكبر من اسمه فلا يخرج من بيته أصلاً، ويمتنع من التصرف سائر يومه، فأرسل إليه بعض أصحابه يوماً بغلام حسن الصورة اسمه حسن، فطرق الباب عليه فقال من؟ قال حسن. فتفاءل به وخرج، وإذا على باب داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ألف ورأى تحتها نوى تمر، فتطير وقال: هذا يشير بأن لا تمر، ورجه ولم يذهب معه، وكان الأخفش على بن سليمان قد تولع به فكان يقرع عليه الباب إذا أصبح، فإذا قال من القارح؟ قال مرة بن حنظلة! ونحو ذلك من الأسماء التى يتطير بذكرها، فيحبس نفسه فى بيته ولا يخرج يومه أجمع، وكتب إليه ينهاه ويتوعده بالهجاء".

وجاء فى هذا الكتاب قبل ذلك: ". . . حكى ابن دستوريه أن لائماً لأمه فقال له: لم لا تشبه كتشيهاة ابن المعتز وأنت أشعر منه؟ فقال ألا تشدنى شيئاً من قوله أستعجزتنى عن مثله؟ فأنشده قوله فى الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

قال له زرنى، فأنشده قوله فى الأذريون الأصفر وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة، والفرس تعظمه بالنظر إليه وفرشه فى المنزل:

كان أذريونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه! تالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها! ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة وأنا أى شىء أصف؟ ولكن غذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس؟ هل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام

وساق صبيح للصبح دعوته
يطوف بكاسات العقار كأنجم
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارقاً
يطرزها قوس السحاب بأخضر
كأذيال خوذ أقبلت في غلائل

وبعضهم ينسبها لسيف الدولة بن حمدان منهم صاحب اليتيمة
وقولى فى صنائع الرقاق:

إن أنس خبازاً مررت به
ما بين رؤيتها فى كفة كرة
ألا بمقدار ما تنداح داره
وقولى فى قالى الزلابية:

ومستقر على كرسيه تعب
رأيته سحراً يلقي زلابية
كأنما زيتته المقلى حين بدا
يلقى العجيين لجيناً من أنامله

وفى الجزء الثانى من زهر الآداب: "كان ابن الرومى منهوراً فى المآكل، وهى التى قتلتها، وكان معجباً بالسلك فوعده أبو العباس المرثدى أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة لا تنقطع. فبعث إليه يوم سبت ثم قطعه، فقال:

ما لجيتانا جفتنا وإلى
جاء فى السبت زورهم فأتينا
وجعلناه يوم عيد عظيم

أخلف الزائرون منتظرهم
من حفاظ عليه ما يكفيهم
فكانا اليهود أو نحكيهم

وأراهم مصممين على الهجر فلم يسخطون من يرضيهم؟
قد سبتنا وما أتنا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيهم
فاتصل ذلك بالناجم فكتب إلى ابن الرومي:

أبا حسن أنت من لا نزا ل نحمد في الفضل رجحانه
فكم تحسن الظن بالمرثد ي وقد قلل الله إحسانه
ألم تدر أن الفتى كالسرا ب إذا وعد الوعد إخوانه
فبحر السراب يفوت القلوب ب فقل في طلابك حيتانه!

وخرج ابن الرومي إلى بعض المنتزهات وقصدوا كرمًا رازقيا فشربو
هناك عامة يومهم، وكانوا يتهمونه في شعره، فقالوا إن كان ما تشدنا لك
فقل في هذا شيئًا، فقال لا تريموا حتى أقول فيه وأنشدهم لوقته:

ورازقى مخطف الخصور كأنه مخازن البلور

إلخ .. إلخ ..

وفي الجزء الأول من هذا الكتاب: " وكان ابن الرومي لا يزال معتمًا
وكان يغضب إذا سئل عن ذلك، وسأله بعض الرؤساء: لم تعتم. فقال
بديهاً:

يا أيها السائلى لأخبره عنى: لم لا أراك معتجراً
أستر شيئًا لو كان يمكننى تعريفه السائلين ما ستر
وقد بين العلة التى أوجبت اعتمامه فى قوله:

تعتمت أحصانا لرأسى برهة من القر يومًا والحرور إذا سفع
فلما دهى طول التعميم لمتى وأودى بها بعد الإطالة والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت على من الصلح

فيا لك من جان على جناية جعلت إليه من جنايته الفزع
وأعجب شيء كان دائئى جعلته دوائى على عمد، وأعجب بأن نفع!

وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب: "قالوا: وكان الناس يتشوفون إلى
أوطانهم ولا يفهمون العلة فى ذلك حتى أوضحها على بن العباس الرومى
فى قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يسعديه على رجل من التجار يعرف
بابن أبى كامل أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها بقوله:

ولى وطن آليت ألا أبيععه ولا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعماً بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوكان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهد الصبا فيها فحنوا لذلك
فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد أن بان غودر هالكا
إلخ .. إلخ ..

وقال على بن عبد الكريم النصيبى: أتانى أبو الحسن ابن الرومى
بقصيدته هذه وقال: أنصفنى وقل الحق .. أيهما أحسن قولى فى الوطن أو
قول الأعرابى

حب بلاد الله ما بين منعج إلى وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تئامى وأول أرض مس جلدى ترابها
فقلت: بل قولك، لأنه ذكر الوطن ومحبته وأنت ذكرت العلى التى
أوجبت ذلك ..

وتخلف سليمان عن نصره ابن الرومى فذاك الذى هاجه على هجائه،
فمن ذلك قوله وقد خرج فى بعض الوجوه فرجع مهزوماً:

جاء سليمان بنى طاهر
كأن بغداد وقد أبصرت
مستقبل منه ومستدبر
وقال:

شوق إلى وجهه سيتلفه
كم يعد القرن باللقاء وكم
لا يعرف وجهه ويرى
يكنز في وعده ويخلفه
قفاه من فرسخ فيعرفه

وقال المعري في رسالته الغفران: "أما ابن الرومي فهو أحد من يقال أن أدبه كان أكثر من عقله، وكان يتعاطى علم الفلسفة، واستعار من أبي بكر بن السراج كتاباً فتقاضاه به فقال ابن الرومي لو كان المشتري حدثاً لكان عجولاً، والبغداديون يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية. وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء، ومن أولع بالطيرة لم ير فيها من خيرة".

أما وفاته ففيها يقول المسعودي في كتابه مروج الذهب: "ومن أهلك القاسم بن عبيد الله على ما قيل بالسم منشؤه ببغداد ووفاته بها، وكان من مختلقى معاني الشعراء والمجودين في القصير والطويل متصرفاً في المذاهب تصرفاً حسناً، وكان أقل أدوات الشعر. . وكان ابن الرومي الأغلب عليه من الأخلاط السوداء، وكان شرها نهما وله أخبار تدل على ما ذكرناه من هذه الجمل مع أبي سهل إسماعيل النوبختي وغيره من آل النوبخت".

واختلفت الروايات في قتله فقال الشريف المرتضى في أماليه:

"أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب قال حدثني محمد بن يحيى الصولى قال حدثني الباقراني قال: اتصل بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر

على بن العباس الرومى وكثرة محالسته لأبى الحسين القاسم ابنه، وسمع شيئاً من أهاجيه فقال لأبى الحسين: قد أحببت أن أرى ابن روميتك هذا. فدخل يوماً عبيد الله إلى أبى الحسين وابن الرومى عنده فاستنشدته من شعره فأنشدته وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلاً، فقال لأبى الحسين بينه وبينه: أن لسان هذا أطول من عقله ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر فى عاقبته. فأخرجه عنك! فقال أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه فى دولتنا ويذيعه فى تمكنتنا. فقال يا بنى! إنى لم أرد بإخراجك له طرده، فاستعمل فيه بيت أبى حية النميرى . .

فقلن لها سرّاً: فدينك لا يرح سلیمًا، وإن لا تقتليه فالمدى

فحدث القاسم بن فراس بما جرى، وكان أعدى الناس لابن الرومى وقد هجاه يا هاج قبيحة. فقال له: الوزير أعزه الله أشار بأن يغتال حتى يستراح منه، وأنا أكفيك ذلك، فسمه فى الخشكنانج فمات . . قال الباقرانى والناس يقولون ما قتله ابن اراس وإنما قتله عبيد الله. قال ابن الرومى لما رجع إلى داره وقد دب السم فى أعضائه شعراً:

اشرب الماء إذا ما تلتسهب نار أحشائى لإطفاء اللهب
فأراه زائلاً فى حرقتى فكان الماء للنار حطب

هذه رواية . .

واعتمد ابن خلكان رواية أخرى فقال: "توفى يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقبل سنة أربع وثمانين، وقيل ست وسبعين ومائتين ببغداد، ودفن فى مقبرة باب البستان وكان سبب موته رحمه الله تعالى أن الوزير أبا الحسن القاسم ابن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه وقلتات لسانه بلافحش فدرس عليه ابن فراش (هكذا) فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه، فلما أكلها أحس

بالسم فقام، فقال له الوزير إلى أين تذهب؟ فقال إلى الموضع الذى بعثنى إليه، فقال له سلم على والدى! فقال له ما طريقى على النار! وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياماً ومات، وكان الطبيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم فزعم أنه غلط فى بعض العقاقير، وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه: رأيت ابن الرومى وجود بنفسه فقلت له: ما حالك؟ فأنشد:

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب أصابه المقدار
وقال أبو عثمان الناجم الشاعر: دخلت على ابن الرومى أعوده فوجدته
يوجد بنفسه فلما قمت من عنده قال لى:

أبا عثمان أنت حميد قومك وجودك للعشرة دون لومك
تمتع من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعهد يومك
وللناجم قصة عن وفاة ابن الرومى رواها ابن القارح فى رسالته إلى
المعرى وفيها يقول:

"دخلت عليه فى علته التى مات فيها وعند رأسه جام فيه ماء مثلوج
وخنجر مجرد لو ضرب به صدر خرج من ظهر. فقلت: ما هذا؟ قال: الماء
أبل به حلقي، فقلما يموت إنسان إلا وهو عطشان. والخنجر إن زاد على
الآلم نحرت نفسى، ثم قال: أقص عليك قصتى تستدل بها على حقيقة
تلقى: أردت الانتقال من الكرخ إلى باب البصرة، فتشاورت صديقنا أبا
الفضل وهو مشتق من الأفضال فقال: إذا جئت القنطرة فخذ عن يمينك وهو
مستق من اليمن، واذهب إلى سكة النعيمة وهو مشتق من النعيم، فاسكن دار
ابن المعافى وهو مشتق من العاقبة. فخالفته لتعسى ونحسى. وشاورت
صديقنا جعفرًا وهو مشتق من الجوع والفرار فقال: إذا جئت القنطرة فخذ عن

شمالك وهو مشتق من الشؤم، واسكن دار ابن قلابة. وهى هذه، لا جرم قد انقلبت بى الدنيا.

وأضر ما على العصفير فى هذه السدرة تصيح "سيق سيق" فها أنا فى السياق. ثم أنشدنى:

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك فى العشرة دون لومك
تمتع من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك

وألح به البول، فقلت له: البول ملح بك. فقال:

غداً ينقطع البول ويأتى الويل والغول
إلا أن لقياء الله هول دونه الهول
ومات من الغد".

وروى صاحب زاهر الآداب اتفاقاً أن ابن الرومى قصد فى مرض وفاته من سياق قصته عن بعض معانيه المأخوذة حيث يقول فى الجزء الأول من الكتاب:

"دخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله فى التغير فأخبر أنه مشغول فرجع، فبعث إليه الرشيد. ختنتى فاتهمتني، فقال إذا انقضت المدة كان الحتف فى الحيلة، والله ما انصرفت إلا تخفيفاً. أخذه ابن الرومى فقال وقد قصده بعض الأطباء فزعم أن القصد زاد فى علته. غلط الطبيب إلى آخر البيتين. . . ولهذه القصة قيمتها فيما يلى من البحث فى أسباب وفاته هذه أنفع الأخبار التى وردت فى ترجمته. أما ديوانه فقد جاء عنه فى الفهرست لابن النديم أن شعره "كان على غير الحروف. رواه عنه المسيبى ثم عمله الصولى على الحروف وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ فزاد عن كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت".

ثم ذكر أسماء رواته وعدة الأوراق التي كتبوها من شعره وهم:
مئقال غلام ابن الرومي مائة ورقة، ورواه أبو الحسن علي بن العصب
الملحي عن مئقال عن ابن الرومي.

ابن الحاجب غلام ابن الرومي مائة ورقة، أحمد بن أبي قر الكاتب مائة
ورقة، خالد الكاتب وعمله الصولي مائتا ورقة".

والصولي هو أبو بكر الصولي الحافظ الرواية المشهور.
